

الحجاج من المنطق الصوري إلى البلاغة الجديدة

أ. حنيفة بداش

جامعة برج بوعريريج

الملخص:

تصدرت بلاغة الإقناع الواجهة بعد إهمال أقصاها من دائرة الاعتبار المعرفي وهذا مدين "بيرلمان" Perelman " الذي اهتم في نشاطه المعرفي بالمنطق الصوري والفلسفة التحليلية، وبعدها انكب على دراسة المنطق غير الصوري (الاستدلال الطبيعي) ويكون بذلك قد ألبس الخطابية ثوبا جديدا حتى أصبحت "خطابة جديدة"، بلاغة جديدة (الحجاج) argumentation' وهذا الأخير يقع في منطقة وسطى بين الخطابية والجدل، لكن الحجاج تجاوز الجدل كونه أوسع منه (كل حجاج جدل وليس كل جدل حجاج) كما أن الحجاج ليس هو الخطابية عينها لاختلافات جوهرية بينهما، ومن جانب آخر تم التمييز بين حجاج جدلي وآخر خطابي، وكل هذه التحولات المعرفية الإبستمية تحت مضلة التداولية.

كلمات مفتاحية: الحجاج، بلاغة الإقناع، التداولية، الاستدلال الطبيعي، الخطابية، الجدل.

Résumé:

Après une négligence qui l'avait éloigné du cercle de la prise en compte cognitive, la rhétorique de la persuasion a repris place dans la scène grâce à **Perelman** qui a donné de l'importance dans son activité cognitive à la logique formelle et à la philosophie analytique, et qui a ensuite entrepris l'étude de la logique non formelle (raisonnement et inférence naturelle). Il aura ainsi donné à l'éloquence un nouvel habillement pour qu'elle devienne «une nouvelle rhétorique», une nouvelle

éloquence (l'argumentation) et cette dernière se situe dans une zone médiane entre l'éloquence et la polémique, mais l'argumentation est plus large que la polémique (toute argumentation est polémique et non pas toute polémique est argumentation), aussi l'argumentation n'est pas l'éloquence elle-même car il y'a des différences fondamentales entre elles, et d'autre part, une distinction a été faite entre une argumentation polémique et une autre argumentation locutoire, et toutes ces transformations cognitives épistémologiques rentrent dans le cadre de la pragmatique.

Mots clefs: *argumentation, rhétorique de la persuasion, la pragmatique, le raisonnement naturel et l'inférence naturelle, l'éloquence, la polémique.*

الخطاب الإقناعي يحضر في كل مظاهر الحياة اليومية عبر مقالة أوجريدة أو برنامج إذاعي أو ملصق إشهاري وغيرها من وسائل الاتصال والتواصل كما يحضر في واجهات أخرى (المرافعات المناقشات السياسية المنتديات الفكرية، القضائية...) . هذا التعدد والتوسع ساهم في تعدد مباحثه واختلاف الآليات التي اعتمدت لمقاربة مختلف أنواع الخطاب والتخاطب (المنطق، علوم اللغة وغيرها من الحقول التي تهتم بتحليل كل أنواع الخطاب، وتتناول مختلف التفاعلات التواصلية والتناظرية) وتنامي الدرس الذي اهتم بمعالجة مختلف التفاعلات التواصلية والتناظرية، وهدفها الرئيسي هو التمكن من مختلف الأوضاع التي يتطلبها كل مقام حجاجي وتناظري، وقد اتضح هذا بشكل جلي بعد أن تبين بأن الظواهر التي كانت السند الرئيسي للقائلين بضرورة استبعاد اللغة الطبيعية لصالح اللغات الصورية أصبحت تشكل مصدر ثراء هذه اللغة الطبيعية (ذلك يخلق أنساقا منطقية تستجيب لخصوصيات اللغة الطبيعية) مما فتح المجال للاهتمام مجددا بالخطابة والأساليب التدليلية غير الصورية (الطبيعية) بأن ظهرت توجهات حوارية وتخطبية متعددة ومتنوعة المسالك والآليات ليتبين بموجب ذلك عجز المنطق بمفهومه التقليدي من الاستجابة لمتطلبات التفاعلات الحجاجية في مظهراتها العادية، وتحليلاتها اليومية؛ النظرية منها والعملية.

لقد كانت البداية مع التداولين السوريين، حين انتقدوا مواقف الدالين السوريين نتيجة استنادهم إلى البعد الماصدي وتقديم اللغة الصورية على الطبيعية فعمدوا إلى تبني التصور المفهومي كونه القادر على الاستجابة لمختلف متطلبات الخطاب الطبيعي وشكلت أبحاث "مونتغو" Montague الإطار النظري لهذا التوجه بالأخذ بالآليات المتعلقة بالإسناد التأويلي لمعنى العبارة في المستوى الذي لم تبحث فيه الداليات الصورية فانصب اهتمامهم على التعبيرات الإشارية لما تكشف عنه من خصوصيات تخص الخطاب الطبيعي لكن عللرغم من هذا البعد الإشاري والمنحى التداولي فقد بقي هذا التوجه قريبا من مقارنة الداليات الصورية (حتى سميت بالداليات المفهومية أو التداوليات الدالية)⁽¹⁾.

أخذت بحوث البلاغة الجديدة تنمو منذ نهاية عقد الخمسينيات حتى الآن عبر ثلاثة آفاق متباينة في أهدافها وبرامجها، ولا تتعلق هذه الآفاق بالاتجاهات الداخلية للدراسات البلاغية الجديدة فحسب؛ وإنما تمثل طرائق مختلفة في منظور التجديد وأدواته المنهجية، وقد سارت أثناء نموها في المنعطفات التالية:

أولها ميلاد مصطلح البلاغة الجديدة عام 1958 في عنوان كتاب موسوم بـ: "مقالفي البرهان: البلاغة الجديدة " Traité de l'argumentation, la nouvelle rhétorique، من تأليف المفكر البولوني "بيرلمان" Perelman، وما يحسب لهذا المؤلف محاولته إعادة تأسيس البرهان أو المحاجة الاستدلالية، باعتباره تحديدا منطقيا بالمفهوم الواسع كتقنية خاصة ومتميزة لدراسة المنطق التشريعي والقضائي على وجه التحديد، وامتداداته إلى بقية مجالات الخطاب المعاصر.

وأخذ هذا الاتجاه من الدراسة فيما بعد اسم "مدرسة بروكسل"، وقد تشكلت منها عدة فروع وتيارات متخالفة فيما بعد، إذ انبثقت من دراسة المنطق القضائي لكن تجاوزته إلى الفلسفة والإيديولوجيا، حتى انتهت في آخر عقد الثمانينات إلى ما يطلق عليه أزمة الشكلانية والطبيعية الجديدة، وأهم جانب تركب عليه هو الوظيفة التواصلية للغة، والجدير بالذكر أنها مرتبطة بالبلاغة الكلاسيكية؛ ذلك أن الذي يشتغل في الخطاب البرهاني يهتم بالأشكال البلاغية كأدوات أسلوبية ووسائل للإقناع والبرهان.

هذا الجانب بمثابة الإشعاع المعرفي الاستيممي الذي أضاء فيما بعد خاصة بين أحضان البنية النقدية ذات النزوع الشكلاني الواضح (فقد نشأ في منتصف الستينيات من هذا القرن) ولم تكن لها علاقة تذكر ببلاغة "بيرلمان" المنطقية، وما تميزت به خروجها عن النمط التقليدي للبلاغة الفيلولوجية، ويمثلها جماعة من الباحثين (البلاغيين الجدد) مثل: جيرار جنيت Gérard Genette، جان كوهين Jean Cohen، تودروف Tzvetan Todorov، جماعة م (ليجا) Goupe MU ويلتقون في كثير من مبادئهم وإنجازاتهم بممثلي الدراسات المجازية واللغوية في الثقافة الإنجليزية والأمريكية مع اختلاف واضح في المنهج والغاية وما يميز دراساتهم أنهم يستمدون الفهم المعرفي من تيارات تحديثية تتزامن مع حركات تجديد أخرى، مثل النقد الجديد، السينما الجديدة.

ليظهر اتجاه ثالث لتحليل الخطاب "المنهج الوظيفي" والذي يعتمد في شق كبير منه على المنحى التداولي وقد تحول إليه في نهاية السبعينيات بعض أنصار التيار الثاني -البنوي- ومنهم "تودروف" الذي أقر عام 1979 بأن السيميولوجيا يمكن أن تفهم باعتبارها بلاغة معاصرة⁽²⁾.

ويمكن إرجاع هذه النهضة البلاغية إلى سبب رئيس خاصة في مجال التنظير إلى الاهتمام المتزايد باللسانيات التداولية والالتفاف حولها، واعتناقها كمرجع معرفي جديد خصب ونشط، ونظريات التواصل والسيميائيات والنقد الإيديولوجي، وكذا الشعرية اللسانية في مجال وصف الخصائص الإقناعية للنصوص وتقييمها⁽³⁾.

وهكذا إلى أن تغير مسار البلاغة؛ إذ لم تعد محصورة في البعد الجمالي بشكل صارم؛ بل نزعت إلى أن تصبح علما واسعا للمجتمع، فقد وسعت حدود الخطابة من خلال دمج الفلسفة بالعلوم الإنسانية، والتحاور اليومي وكل هذا تحت عباءة البلاغة الجديدة.

فلم يعد هدفها المنشود هو إنتاج النصوص بل تحليلها. إن تصورا من هذا القبيل يتضمن أمرين: أولهما ضرورة وجود علم عام للنص يكون صالحا لا لدراسة النصوص الأدبية وحدها؛ بل لدراسة غيرها من النصوص على اختلافها، والفكرة الثانية هي أن كل نص بشكل ما هو بلاغة كونه يملك وظيفة تأثيرية.

وهكذا يمكن القول أن البلاغة تمثل منهجا للفهم النصي مرجعه التأثير، فقدعلا مقام المستمع (القارئ) وجعل تابعا لمقصدية الأثر، ففي النموذج البلاغي للتواصل يحتل متلقي الخطاب المقام الأول؛ إذ أقحم في دائرة البلاغة كل المخاطبين بغض النظر عن نوعية المستمع (المتلقي)، وبالتالي توسيع حدود الخطابة وغزت الحياة السياسية، الاقتصادية،... وهذا النشاط والحراك اللغوي يوفر كما من الحجاج⁽⁴⁾.

لقد عادت بلاغة الإقناع للواجهة بعد إهمال أقصاها من دائرة الاعتبار المعرفي هذا مدين تاريخيا "لبيرلمان" الذي اهتم في نشاطه المعرفي بالمنطق الصوري والفلسفة التحليلية، إلا أن دراساته المبكرة حول البلاغة والفلسفة قادتته إلى التمييز بين المنطق الصوري الحديث المستند إلى الرياضيات والقيم *valeurs*؛ أي المبادئ العامة التي تؤسس الخلفية الأخلاقية لتدبير الديمقراطيات المعاصرة (العدالة، المساواة، المسؤولية عن الأفعال) وهذا ما زادا من اهتمامه بأشكال الاستدلال العلمي، ومع تيتكا *Tetka* التي ارتبط تكوينها بعلم النفس الاجتماعي وبلاشتغال على القيم التي تحكم العلاقات الإنسانية وتنظم المبادلات الخطابية، سينكب "بيرلمان" على متابعة المنطق غير الصوري ودراسة النصوص والتقاليد الحجاجية ضمن مسح امتد عميقا إلى الحقبة اليونانية أساسا من أرسطو، وهناك عدة ظروف سياسية خاصة أدت إلى تغذية هذا المنحى اللغوي الفلسفي -البلاغة الجديدة، الحجاج-، إذ نجد الباحث "جورج فينو" *Gorge Vignaux*، يغزو مشروع "بيرلمان" في إحياء بلاغة الإقناع إلى عوامل سياسية، ارتبطت بتأثره بالإبادة الجماعية التي تعرض لها الشعب اليهودي خلال الحرب العالمية الثانية، والذي كان يبرمج هذه الإبادة الخطب النازية لهتلر، مما جعل "بيرلمان" يقتنع أن الكلام غير المنضبط المستند إلى المطلق قد يقودان إلى اللاعقل والتخريب والموت⁽⁵⁾.

كما أنّ خطاب الأحزاب الشيوعية الأوروبية المهاجمة للديمقراطيات البرجوازية قويا ومشحونا، ورأى بيرلمان فيه صدى للخطابات التوتاليتارية السابقة وحسب "بيرلمان" فلا عدل دون محاجة ولماحاجة إيجابية دون تنظيم النقاش العمومي؛ أي ضبط الحجة التي تحكمه.

كما لعبت المتطلبات المعرفية دورا هاما في إرساء هذا الاتجاه من البحث، إذ تميز القرن العشرون ابستيميا بوصفه قرنا للإشهار والدعاية، مما جعل الحضارة البشرية موسومة بمهارتها المتطرفة في التقنيات الخاصة بالتأثير على الأشياء، وليس انطباقا لاستراتيجيات التأثير من بلاغة الإقناع التي دافع عنها وطورها "بيرلمان".

وهذا النزوع العام نحو بلاغة الإقناع كان إجابة معرفية عن مأزق المنطق الصوري وعجزه في الفكر المعاصر عن التعامل مع القضايا التي تنفلت من الاختزال الشكلي والحساب، وهذه المجالات التي لا تقوم على الضرورة والبداهة، هي ما يشكل موضوع الحجاج وأن المجالات التي لا يتعلق فيها الأمر بالمفضل والمقبول والمعقول، فالاستدلالات ليست استنباطات شكلية أو استقرارات بل حجاجات، من هنا يمكن القول أن الحجاج مسار آخر للاستدلال يتصدى لفكرتي البداهة والحتمية. فمجال نظرية الحجاج انطلقا مما سبق: "هودراسة التقنيات الخطابية التي تمكن من إثارة وتعزيز انخراط الأذهان في الأطروحات المقدمة".

وعليه فإن الانسجام مع الفروض والمواقف هو محور الحجاج، فمدار الأمر إحداث تأثير عملي يمهد له تأثير ذهني، وهكذا العمل على الإقناع⁽⁶⁾.

وعليه فإن مفهوم الاستدلال -الذي ذكر سابقا، وأشكال الاستدلال العلمي عند بيرلمان- قد تغير وأخذ بعدا لغويا؛ إذ يعتمد القائم بعملية الاستدلال على كفايته اللسانية والمقام والمبادئ العامة للحوار والقواعد الخطابية فنجاح عملية التواصل اللفظي *verbale* يتوقف على الطابع القصدي للرسالة، وعلى الاستدلالات التي يقوم بها المخاطب، إذ يقوم هذا المرسل بمجموعة من الاستدلالات غير البرهانية اعتمادا على المبادئ العامة للتواصل والنتيجة المحصل عليها من نجاح العملية التواصلية وموافقته لمقاصد المتكلم⁽⁷⁾.

وإذا عرضت جميع الأقوال التي دلت بدلوها في المنطق ومسألة الحجاج، فهناك من يرى أن الحجاج في اللغة يتعارض مع كثير من النظريات والتصورات الحجاجية الكلاسيكية التي تعد الحجاج منتما إلى البلاغة الكلاسيكية (أرسطو أو البلاغة الحديثة لبيرلمان، اولبريخت Ulbricht، تيتكاميار Meier...) أو منتما إلى المنطق الطبيعي "جان بلز غريير" Jaen Greer.

إن النظرة التي صاغها الفرنسي "أوزفالد ديكرود" Ozvald ducrot في 1973 نظرية لسانية تهتم بالوسائل اللغوية وبإمكانيات اللغة الطبيعية التي يتوفر عليها المتكلم وذلك بقصد توجيه خطابه وجهة ما تمكنه من تحقيق أهدافه الحجاجية والمنطلق من فكرة إننا نتكلم عامة بقصد التأثير⁽⁸⁾.

إن همّ الباحثين ليس بناء الحجاج على الأسس الفلسفية أو المنطقية أو البلاغية، ومن ثم لم ينشغلا بوقائع الإقناع؛ بل بحثا الدور الحجاجي الذي يلعبه الكساء اللغوي لهذه الوقائع، ولذلك انتهي إلى أن اللغة تحمل في طياتها بعدا حجاجيا كامنا في بنيتها الداخلية مسجلا فيها وليس عنصرا مضافا إليها وبذلك فمعنى الأقوال لا تتفصل عن طابعها الحجاجي⁽⁹⁾.

ومع طرح ديكرود اقترب الحجاج من الخطاب بصوره وأشكاله وتراكيبه اللغوية اللسانية المختلفة فالهوية بين الحجاج والمنطق الصوري والجدلي تزايد مع كل نظرية لغوية لسانية جديدة.

ولكي يتضح مفهوم الجدل لا بد من مقارنته بمفهوم البرهنة أو الاستدلال المنطقي، ومن ذلك أن الخطاب الطبيعي ليس خطابا برهانيا بالمعنى الدقيق للكلمة، فهو لا يقدم براهين وأدلة منطقية، ولا يقوم على مبادئ الاستنتاج المنطقي، فلفظة الحجاج تعني البرهنة على صدق إثبات من وجهة نظر منطقية، ومن خلال هذه الأمثلة يتبين الفرق بينهما:

كل اللغويين علماء

زيد لغوي

إذن زيد عالم⁽¹⁰⁾

انخفض ميزان الحرارة

إذن سينزل المطر

ففي المثال الأول قياس منطقي حتمي وضروري لأسباب علمية، أما المثال الثاني فإنه لا يعدو أن يكون حجاجا أو استدلالا طبيعيا غير برهاني، لأن نزول المطر يقوم على معرفة العالم، وعلى معنى الشطر الأول من الجملة وهو استنتاج احتمالي⁽¹¹⁾.

ومن هنا يمكن الجزم بتميز الاستدلال الطبيعي (الحجاج) عن الاستدلال الصوري (البرهان) حيث أن البرهان هو الاستدلال الذي يعنى بترتيب صور العبارات بعضها على بعض، بصرف النظر عن مضامينها واستعمالاتها⁽¹²⁾.

أما حدّ الحجاج أنه فعالية تداولية جدلية، وهو تداولي لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي؛ إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة ومطالب إخبارية وتوجهات ظرفية، وهو جدلي لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة، والانتقالات فيه لا تبنى على صور القضايا و حدها كما في البرهان؛ بل على هذه الصور مجتمعة إلى مضامينها بشكل كبير وأن يطوى في هذه الانتقالات الكثير من المقدمات والنتائج، وأن يفهم المتكلم المخاطب معاني غير تلك التي نطق بها تعويلا على قدرة المخاطب على استحضارها إثباتا أو إنكارا، كلما انتسب إلى مجال تداولي مشترك مع المتكلم، بذلك يكون الحجاج الفلسفي التفاعلي فعالية استدلالية خطابية مبناها على عرض رأي أو الاعتراض عليه⁽¹³⁾.

ويرى "عليوي أبا السيد" في كتابه الحجاج في التفكير النقدي أن المنطق غير الصوري أقوى حركة للدراسات الحجاجية، ونظر إليه في بداية الأمر باعتباره دلالة على المعاني الخطابية للحجاج، وإذا كان المنطق غير الصوري قد اخذ المجال الحجاجي كأرضية خصبة للدراسة وبذلك سعى إلى بناء مقاربة فلسفية ذات منحى معياري تصويري⁽¹⁴⁾.

وهنا منبت التمايز بين منطق صوري وآخر أوغل في الخطابات الطبيعية أو الاستدلال الطبيعي وقد تم توضيح ذلك سابقا

ذكر في كذا موضع من الطرح السابق مصطلح الجدل مرة مصاحبا للحجاج ومرة أخرى منفصلا عنه وهذا أمر ضروري كون البحث يدور في فلك المنطق الحجاج الخطابية البلاغة الجديدة، وهناك تعانق، علائق مشتركة بين هذه المصطلحات، فلا نستطيع أن نمر مرور الكرام على هذه المدلولات دون ضبط الفارق الدقيق الموجود بينها، لنسير بأمان فيما بعد ولا نقع في منزلق الخلط بين هذا

وذلك، فمثلاً فرقنا بين المنطق الصوري والاستدلال الطبيعي وجب التفرقة بين (الجدل الحجاج الخطابية) وتوضيح العلاقة بينهما طبعاً إن وجدت.

فالمنطلق يكون من تعريف الحجاج مثلما وضح ذلك "عبد الله صولة" في قوله "الحجاج على ضربين: ضرب أنت فيه لا تبرح حدود المنطق، وهو ضيق المجال ومرادف للبرهنة والاستدلال، إذ هو يعنى بتتبع الجانب الاستدلالي في المحاجة وهو ضرب واسع المجال لانعقاد الأمر فيه على دراسة التقنيات البيانية الباعثة على إذعان السامع أو القارئ، يتخذ هذا التعريف منطلقاً لتحديد علاقة الحجاج بالجدل من جهة، وبالخطابة من جهة أخرى؛ فالحجاج ثلاثة مفاهيم على الأقل، مفهوم يجعله مرادفاً للجدل (خاصة عند القدماء وبعض المحدثين من العرب). ومفهوم يجعله قاسماً مشتركاً بين الجدل والخطابة، خاصة عند اليونان (أرسطو) ومفهوم له في العصر الحديث في الغرب وهو أدق وأوضح وأعمق، ذلك أن الحجاج اخذ في الاستواء مبحثاً فلسفياً قائم الذات مستقل عن صناعة الجدل والخطابة⁽¹⁵⁾.

ولبيرلمان و تينكا وجهة نظر في هذا الموضوع- خاصة فيما تعلق بالعلاقة بين الحجاج الخطابية والجدل- مفادها أن ما من محاجة إلا والباعث عليها وجود شك في صحة فكرة ما، إن المحاجة تفترض أن هناك فكرة ما ينبغي تدقيقها والتشديد عليها وإن لم يكن الأمر كذلك يشوبها اللبس و حينها لا يمكن فرضها على المتلقي كما يلزم .

وتوجد فئة من خصوم الخطابة تنفي تعدد الحقائق، لأن ذلك يؤدي إلى التناقض وحينها يتصدى للدفاع عنها خطيبان مختلفان، ويمكن أن يؤمن بها جمهوران مختلفان، فالخطابة المنشودة هي تلك التي يراها أفلاطون في القدرة منضوية تحت مضلة الحقيقة وفي النهاية فإن النتائج العملية التي ينبغي التوصل إليها من دراسة الواقع نتائج تفرض نفسها على كل عاقل ومن هذا المنطلق يلغى الحجاج مادامت الأمور واضحة بنفسها كما أن المرسل هنا يسقط دوره الجوهري (فاستدلالاته لا زمنية)⁽¹⁶⁾. وليس همه معرفة خصوصية المتلقي (الجمهور هنا مادامت خطابة) فعلى الجميع النقل بموضوعية كاملة - إن هذا الطرح يتناقض والهدف المنشود من كل خطاب؛ إذ سيلزم الربط بين عناصر السياق المختلفة ووظائف اللغة كما حددها

"جاكسون" بالإضافة إلى ضرورة الاستعانة باستراتيجيات مختلفة لبلوغ الهدف من عملية التواصل، ونقل الرسالة على أكمل وجه فالاتجاه السابق حرض مجموعة من الفلاسفة على إيجاد البديل فقد وضعوا في الحسبان إلى جانب العقل أهواء الإنسان ومصالحه التي من شأنها أن تتعارض مع ما يمليه العقل، إذ يكون الحجاج عندهم لغاية التأثير في الإدراك من ناحية أخرى (الأهواء).

الفكرة نفسها تحدثنا عنها سابقا وهي وجود ضربان من الحجاج، و على هذا الأساس يعقد أرسطو صنفان للحجاج: المواضع و الخطابة، في الأول سعى إلى مناقشة الأطروحات مناقشة نظرية منفصلة عن ذات أو ظرف معين-معيار التأثير العقلي المجرد- وفي الثاني -الخطابة- كان التركيز على المرسل إليه ومحاولة فهم خصوصيته، وهذا الخطاب غير معقول عكس الخطاب الحجاجي الأول و ربما تقسيم الحجاج على هذه الشاكلة عند أرسطو هو ما أدى إلى التمييز بين التأثير في الذهن (نظريا) وهذا هو موضوع الجدل، وبين التأثير في الإرادة (أي عمليا) وهذا هو موضوع الخطابة (17).

والخطابة عند أفلاطون مفيدة و نافعة، لأن الحق والعدل لهما قوة طبيعية أعظم من أصدادهما، فإن لم تصدر الأحكام كما يليق بها، فبالضرورة يهزم المدافعون بسبب خطئهم و إذن يتحقق جهلهم التويخ.

وهناك ما هو أكثر مما ذكر، وهو متى حصلنا على العلم الصحيح الدقيق، فقد يوجد صنف من الناس لن يسهل إقناعهم و نحن نقتبس خطابنا من هذا المصدر وحده، لأن الخطاب المقول حسب العلم ينتمي إلى التعليم ، ومن المحال استعماله في هذا المقام، حيث إن ضروب الأقاويل الخطابية ينبغي أن تدعن بالضرورة للمفاهيم العامة المشتركة .

إن الجدل والخطابة هما اللذان ينتجان الأضداد لأن كل واحد منهما يطبق على القضايا المتقابلة، وما يطبق على نحو من التشابه، لأن هذه المواد يمكن أن تكون ذات قيمة واحدة، لأن القضايا الصحيحة والقضايا الأكثر خلافا تكونان دائما بطبيعتهما أشد قبولا واختصاصا بالاستدلال القياسي والإقناعي (18).

ونخلص إلى أنه يوجد حجاجان جدلي و مقامي؛ فالجدلي لغاية التأثير العقلي المجرد، وتمثله في التراث العربي الإسلامي مناظرات علم الكلام وهو ما يسمى بعلم النظر (الاستدلال) وهو عند التهناوي علم يقدر معه على إثبات العقائد الدينية على الغير بإيراد الحجج و دفع الشبه، بالإضافة إلى المناظرات الفقهية، وهو موجود في القرآن، كما تجتهد كتب علوم القرآن في استخراجها تحت عنوان جدل القرآن والمذهب الكلامي في القرآن أو الاحتجاج النظري في القرآن.

والحجاج الخطابي: فمن خصائصه انه موجه إلى جمهور ذي أوضاع خاصة تتجاوز التأثير النظري العقلي إلى التأثير العاطفي وإثارة المشاعر والانفعالات⁽¹⁹⁾.

إن هذا النوع من التمييز بين النمطين مغلوطة، ووجه الغلط الأول يتمثل في الفصل بين العقل والهوى وهذا ربما يعود إلى أفلاطون في تصويره لقوى النفس. والثاني يتمثل في نزع كل تبرير عقلي عن العمل المبني على الاختيار.

وهذا الطرح يجنح إلى أن الحجاج غايته إحداث التأثير العملي الذي يمهده له التأثير الذهني (الجمع بين جدل أرسطو وخطابته) وحرك هذا الموقف رأيان فلسفيان: ففي مقولة ديكارت (أنا أفكر إذن أنا موجود) فقد جعل ديكارت مجال هذا التفكير الصادق لا المحتمل، الذي هو مجال الجدل وخاصة الخطابة فالجدل والخطابة لا يكونان إلا حيث اختلاف الأحكام و تعددها، وهو ما يتماشى مع العقلانية المعاصرة التي قامت على أنقاض العقلانية الديكارتية.

والرأي الثاني مرتبط بالأول في بعض الوجوه فالحجاج -كما يرى بيرلمان- جعل بالإمكان الحديث عن فلسفة بدون أسس ميتافيزيقية (الربط بين الفكر والعمل) فالحقيقة لا يمكن أن تضعها الأنا الديكارتية؛ بل يشترك فيها المتكلم والسامع فالحقيقة تقع خارج الذات، وضامن الصحة فيها الواقع والعمل.

وفيما بعد تم جمع شتات الخطابة التي توزعت أجزاءه وتناثرت بين الفلسفة الجدل والأدب، فقد يكون التأثير في الذهن بواسطة الوسائل الخطابية وأهم نوع من أنواع الخطابة يحدث فيه هذا الضرب من⁽²⁰⁾. التأثير الخطب الأفوديقية (من أفوديقى معناه الإيضاح) الخطب المشوري يشير بما هو نافع وأفضل، الخطب المشاجري يدافع عما هو عدل، فإن نوع الخطب الأفوديقى البرهاني مداره على المدح والذم فيهتم بالقبح

أو الجميل. فقد جعل الحجاج حملا على الإقناع، جمعا بين الأفودقي المشاوري والمشاري. فبعث بذلك الخطابة في ثوب جديد هو الحجاج، فنظرية الحجاج أرب الى الخطابة منها ألى اللى الديالكتيكا أو الجدل⁽²¹⁾؛ فالحجاج أوسع من الجدل؛ إذ إن كل جدل حجاج وليس كل حجاج جدل فهو القاسم المشترك بين الجدل والخطابة⁽²²⁾.

ونجمع أشتات الاختلاف بين الجدل والخطابة: أن الجدل مداره النظر المحض في حين الخطابة همها الفعل الذي يمارسه الخطاب في الجمهور كما أن الجدل يتعلق بالأراء في عدة خصوصياته (أراء غير شخصية) في حين أن الخطابة مخصصة على الدوام، فلا خطابة بدون مقام وجمهور (حمل على الإذعان دائما) بعد هذه المقاربة بين الحجاج والخطابة تطرح إشكالية مهمة فهل الحجاج هو الخطابة؟ ولا بد من طرح هذه الإشكالية، ذلك أن من فرط مقاربة الحجاج بالخطابة يخشى من التضليل ويظن القارئ (المتلقي) أن الحجاج هو عتبة الخطابة .

الحجاج يختلف عن الخطابة من زاويتين:

أنّ الخطابة تحتاج إلى خطيب ومكان معين وجمهور معين، بينما جمهور الحجاج يمكن أن يكون عاما حاضرا أو غائبا ويمكن أن الحجاج بين شخصين متحاورين أو بين المرء ونفسه.

الثانية من جهة الخطاب:

إذ الخطابة تحصر الخطاب في ما هو شفوي، لكن الخطاب الحجاجي عند المؤلفين يمكن أن يكون منطوقا أو مكتوبا، وفي أثناء عملية الكتابة، فإن المؤلف (الكاتب) يستحضر الجمهور. والنتيجة هي بعث الخطابة في ثوب جديد أسموها الحجاج⁽²³⁾.

وهكذا تم تصحيح مصطلح مادة خطب وتقريبه من أغراض سيمانطيقا الخطاب وتداولية والانتقال إلى مرحلة سيادة الفكر اللساني المعاصر، وذلك من خلال الانتقال من الخطابة الكلاسيكية كما هي متداولة في الوقت الحاضر هو الخروج من الفكر الجدلي أو الخطابي الذي يرمي إلى القناع والدخول في فكر تداولي يهدف إلى انجاز الفعل⁽²⁴⁾.

فيكاد "بيرلمان" ينفرد بالتوجه البلاغي في دراسة الخطاب، إذ أعطى دورا أساسيا للمستمع: ودراسة الخطاب انطلاقا منه، لقد تمكن من إعادة الاعتبار للبلاغة الأرسطية وتجاوز التصور الذي اختزلها في البعد الجمالي، وحاول تخليصها من الهيمنة الصورية لجعلها إمبراطورية، إنها بلاغة تأخذ بعين الاعتبار المقام والمتكلم والمخاطب وظروفهم، وكذا ظروف إنتاج الخطاب وبذلك تصبح البلاغة في الإقناع والإمتاع في الوقت نفسه، كما بحث مع "تيتكا" في مختلف التفاعلات الحجاجية اعتمادا على المبادئ.

التي تؤسس منطلقا للقيم كما قام بتحديد نظرة خاصة للعلاقات القائمة بين ما هو مصرح به وما هو ضمني مقرا بضرورة قراءة البلاغة ضمن تصور توسعي يستحضر المنطق والشعر والفلسفة.

ويكون بذلك قد عاد إلى تصورات أرسطو كما وردت في كتابي "الجدل والخطابة"، بهدف وضع تصور يسميه "البلاغة الجديدة"، إنها نوع من الاقتران بين البعد العقلائي والبعد الاجتماعي، أي نظرية جديدة للحجاج ترد ضمن تصور بلاغي جديد يعيد الاعتبار للمقومات لحظة التأثير والإقناع، إذ يحتل السامع الدور المركزي في كل تحليلاته التي تسع إلى تدبر الخطاب الإقناعي، (سواء شخص واحد أو أكثر) وبذلك يكون قد وسع الحيز الذي رسمه أرسطو ليشمل كل مستمع، يستنتج أنّ الهدف الأسمى هو البحث عن نظرية للخطاب الإقناعي لكل مستمع متخيل (كل من تتوجه إليه بخطاب إقناعي)⁽²⁵⁾.

يتزامن ذكر الخطاب الإقناعي كمفهوم ذكر عناصر أخرى تتوارد معه أشهرها: الحجاج الخطابية الاتصال اللغوي، إشكالية أزمة التواصل مثل دور الخطيب طبيعة الخطب أشكالها... من جانب آخر يجب التمييز بين النص الخطابي الإقناعي والنص الشعري أو أي نص إنشائي آخر، لأن هذا يجافي الروح المنهجية التي تقتضي أخذ طبيعة الموضوع بعين الاعتبار عند تحديد منهج دراسته.

ومن أجل ذلك فصل أرسطو الخطابة عن الشعر؛ لأن النص الشعري يهدف إلى التخيل (ترويح عن النفس) وطبيعة الخطابة الهادفة إلى الإقناع الذي يستوجب التصديق والقيام بالفعل حسب الأحوال والاحتمال⁽²⁶⁾.

وقد استقر البعد الحجّي في الخطاب في الواجهة ليشكل الحقل المحوري للبحث لدى العديد من المهتمين مما دفع بالعديد من المناطق إلى وجوب خلق أنساق منطقية تراعي مستلزمات الخطاب الطبيعي، أي أنساق تربط بالتداوليات المنطقية، وبالأبعاد الحوارية والحجاجية بشكل عام، وهكذا إلّا أن تشكل الوصل بين المنطق والحجاج مبحثاً للعديد من الحقول المعرفية منها: المنطق الطبيعي - فلسفة اللغة العادية، التداوليات المنطقية.. وهلم جرا.

وفي ظل هذا التعدد للأبعاد الدلالية والتداولية للخطاب اكتشف مجموعة من الفلاسفة هذا الطرح- تبنى أنساق منطقية طبيعية- وكانت المحاولات الأولى لتحليل الخطاب في بعده التواصلي والحواري مع "فنغشتاين" Wittgenstein ، ليأخذ هذا التصور أبعاداً أخرى متعددة المطالب ومتنوعة المسالك فيما يسمى: فلسفة اللغة العادية مع "أستين" Austin" وسيرل " Searl" وبول غرايس "Paul Grice"، وقد انضمت مدارس أخرى منطقية ولسانية وفلسفية وخصوصاً مع أصحاب المنطق الطبيعي ونظرية الحجاج، وفلسفة التواصل... غيرها من التوجهات (27).

الهوامش:

- 1- حسان الباهي: منهجية الحوار في التفكير النقدي، أفريقيا الشرق المغرب(الدار البيضاء) ط2، 2013، ص71-72.
- 2- ينظر، صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، دار الكتاب المصري (القاهرة) 2004، ص96.
- 3- ينظر، هنريش بليث: البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سمائي لتحليل النص، أفريقيا الشرق (المغرب) ط1، 1999، ص22
- 4- المرجع نفسه، ص24.
- 5- عبد اللطيف عادل: بلاغة الإقناع في المناظرة، منشورات ضفاف، بيروت لبنان، ط1، 2013، ص83.
- 6- المرجع نفسه، ص84-85.
- 7- حسن بدوح: المحاورّة مقاربة تداولية، عالم الكتب الحديث ط1، 2012 ص151.
- 8- أبو بكر الغزاوي: اللغة والحجاج، العمدة للطبع (المغرب) ط1، 2006، ص14.
- 9- عبد اللطيف عادل: بلاغة الإقناع، ص95.

- 10- ينظر، أبو بكر الغزاوي: المرجع السابق، ص14-15.
- 11- المرجع نفسه، ص15.
- 12- حسن بدوج، الحاورة مقارنة تداولية، ص132.
- 13- طه عبد الرحمان: أصول الحوار وتجديد الكلام، المركز الثقافي العربي، المغرب (الدار البيضاء)، ط2، 2000، ص65-66
- 14- ينظر، عليوي أبا السيد: الحجاج والتفكير النقدي مقارنة تداولية منطقية معرفية نقدية، دار نشر المعرفة '(الرباط)'، ص 44.
- 15- عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي بيروت (لبنان) ط2، 2007، ص8-9
- 16- عبد الله صولة: في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات مسكلياني للنشر والتوزيع (تونس) ط1، 2011، ص16-17.
- 17- المرجع نفسه، ص17.
- 18- أرسطو: الخطابة، تر عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق المغرب (الدار البيضاء) ط1، 2008.
- 19- عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الاسلوبية، ص18.
- 20- ينظر، عبد الله صولة: في نظرية الحجاج، ص18-19.
- 21- ينظر، المرجع نفسه ص19-21.
- 22- عبد الله صولة: الحجاج في القرآن، ص 17.
- 23- ينظر، عبد الله صولة: في نظرية الحجاج، ص 21-22.
- 24- أرسطو: الخطابة، تر عبد القادر قنيني، ص5.
- 25- حسان الباهي: الحوار ومنهجية التفكير النقدي: ص75.
- 26- ينظر عمارية حاكم: الخطاب الإقناعي في ضوء التواصل اللغوي دراسة لسانية تداولية في الخطابة العربية أيام الحجاج بن يوسف الثقفي، دار العصماء سورية (دمشق) ط1، 2014. ص7
- 27- حسان الباهي : الحوار ومنهجية التفكير النقدي ص73.